الفصل الثالث

جوانبُ جرير

١ ـ الشاعر السياسي

ما كاد جرير يلقى بنفسه فى تيارات السياسة حتى قذفت به فى يمّ أشبه ما يكون بالنفاق السياسى . حين قادته ظروف الحزبية وأهواؤها نحو هوى الزبيريين فى الوقت الذى يشايع فيه الأمويين : فقد مالت قيس مع ابن الزبير . تؤازر من يؤازرونه فى موقعة مرج راهط . وكذلك كان ميل جرير مع قبيلته بنى يربوع الذين حاربوا فيما بعد فى صفوف مصعب بن الزبير . ورثى جرير قتلاهم [١] . وبذلك قرّبت الحوادث يربوعاً وشاعرها جريراً من قيس . منذ غلب ابن الزبير على العراق . فجعلتهم صفّاً واحداً . كما صنعت الحوادث عداوة لهؤلاء من الفرزدق وقومه . فقومه هم الذين غدروا بالزبير . وقتلوه بعد وقعة الجمل . كما خاصمته زوجه النوار إلى ابن الزبير فى مكة ولم ينصره عليها . ومن ثم نفهم زبيرية جرير التى دفعته إليها الحوادث دفعاً . فاتخذ منها مادة يرمى بها غريمه الفرزدق وقومه بالغدر بالزبير وقتله :

تَسَلِ الزُّبيرَ وأنتَ عاقدُ حَبْوَةٍ قُبْحاً لِحُبْوَتِكَ التى لم تُحْلَلِ
وافتكَ غَدْرُكَ بالزُّبَير على مِنًى ومَجَرُّ جِعْثِنِكُمْ بِذات الحَرْمَلِ [٢]

كما ندرك السر الذى من أجله ألب بشر بن مروان الشعراء على جرير [٣] . وقد خلا ديوانه من الاعتداد بهذه الزبيرية إلاّ ما ندر من الأبيات كقوله يفخر بقومه الذين ذادوا عن المنبر الشرق أيام فتنة البصرة [٤] . وعن الكعبة مناصرة لابن الزبير :

---

(١) « أنساب الأشراف » .
(٢) « الديوان » .
(٣) و (٤) « الأغانى » و « النقائض » .

عَنِ المنبرِ الشرقيِّ ذَادت رِماحنـــا وعن حُرمة الأَركان يُرْمَى حطِيمُها

ولن نبعد عن الصواب إذا قلنا : إن جريراً لم يكن عريقاً فى زبيريته التى لم تتضح فى شعره وضوح أمويته .

فلما تمّ القضاء على ابن الزبير وأنصاره خلص للأمويين خلوصاً تامًّا ، فكان شاعرهم الأول بالبصرة ، يمدحهم ، ويمدح ولاتهم ، ويسرف فى هذا المدح ، ويغلو فى بيان نظريتهم فى الخلافة وأحقيتهم بها ، ويشيد بسياسة ولاتهم ويؤيدها ، ولا سيما سياسة الحجاج . ولعله قبل إيغاله فى أمويته كان يسائل نفسه : أليس من الأجدر به أن يتعلق بالأمويين ، ليرفع بعزهم ضعة عشيرته ، ويردّ بفيضهم عادية فقره ، ويأمن بنصرهم مكر أعدائه ، ويتقى بتأييدهم نكر بطشهم ، ثم أليس من حق الكثرة الغالبة ، ومن حقه على هذه الكثرة وهو شاعرها الذى تتحلق حوله بالمِرْبَد[1] تهلل له وتنصره على معارضيه ، أن يساير هواها فى معاضدة حزب الدولة الغالب بكثرته . ؟

لقد استجاب لنفسه حين دعته إلى ذلك ، واستجاب لعوامل الرغبة والرهبة فسلك سبيل المؤيدين ، وذهب مذهبهم يشيد بذكر الأمويين ، ويدعو إلى نصرة مبادئهم التى تدعو إلى تقديس الدولة ، واتخاذها عقيدة تقوم على أن الله اصطفى الخلفاء ، وخصهم بالكرامة ، وفضلهم على سائر الأمة الإسلامية ، فهم الأئمة الهادون المهديون الذين تجب على المسلمين طاعتهم ، ومن عصاهم أو خرج عليهم ، يعدّ مبتدعاً فى الدين يصد عن سبيل الله ، ويفتح للشيطان سبيل الضلال .

وقد اعتمد فى تأييد نظرية الخلافة الأموية على المذاهب العقلية السائدة فى

---

(١) المربد : سوق من أسواق العرب بالبصرة . والمعنى اللغوى للمربد : كل شىء حبست به الإبل والغنم ، ولهذا قيل مربد النعم الذى بالمدينة ، وبه سمى مربد البصرة. وأصله من ربد بالمكان إذا أقام به .

عصره ، كقوله لعبد الملك :

اللهُ طَوَّقَكَ الخلافَة والهدى واللهُ ليس لِمَا قضى تبديلُ

يشير إلى فكرة المهدى ، وإلى مذهب الجبرية ، فالله قد قضى لعبد الملك بالإمامة ، ولا رادّ لقضاء الله وقدره ، وشبيه بهذا قوله فى يزيد بن عبد الملك :

زان المنابر واختالت بمنتجَب مُثَبَّتٍ بكتابِ الله منصورِ[1]

وقوله فى عمر بن عبد العزيز :

نال الخلافة إذ كانت له قَدَرًا كما أَتى ربَّه موسى على قَدَرِ

وقوله فى هشام بن عبد الملك :

إلى المَهْدِىِّ نفْزعُ إن فَزِعْنا ونستسقى بِغُرَّتِهِ الغَماما[2]
رَضِينا بالخلافةِ حينَ كنا لَهُ تبعاً وكان لنا إماما

ومن قوله يعرّض بخصومهم الضالين :

آل الْمُهلبِ فرَّطُوا فى دينهم وطَغَوْا كما فعلت ثمودُ فَبَارُوا[3]

ولا ينى عن مناصرة ولاة بنى أمية ، كقوله من قصيدة يؤيد فيها سياسة الحجاج ، ويبرر جبروته وبطشه بالمشاغبين ، ومحاربته للرشا والفساد :

لقد جرَّدَ الحجّاجُ بالحقِّ سيفَه لكم فاستقيموا لا يميلَنَّ مائلُ

وكم مدحة عَمرتْ بشعره السياسى ، تأييداً للحكم الأموى ، وتعريضاً بالمعارضين ،

---

(١) منتجب : مختار .
(٢) فزع إليه : التجأ .
(٣) باروا : هلكوا .

غير أنه لم يتعرّض لسبّ غير الأمويين من قريش المطالبين بالخلافة . إرضاء لمذهبه من مراضاة الناس .

وله مع أولياء العهد جولات كادت تذهب فيها نفسه ، كان ذلك حين حبب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك أن يصرف ولاية العهد عن أخيه سليمان إلى ابنه عبد العزيز ، وخاض جرير معه غمار هذه السياسة ، وهتف بها فى بعض قصائده ، ثم أعجلت الحجاج منيته عن إتمام سياسته ، ولحق به الوليد ، فأسقط فى يد جرير ، ولم ينجه من كبته غير حسن حظ واتاه فى ساعة العسرة ، حين ثار أحد رؤساء بنى يربوع قوم جرير فى خراسان بقتيبة بن مسلم فقتله ، وكان ممالئاً للحجاج فى هذه السياسة ، فأرضى ذلك سليمان عن يربوع عامة ، وعفا عن شاعرهم جرير .

وكثيراً ما استجاب لرغبة الخلفاء الذين أرادوا تحويل ولاية العهد لأبنائهم : صنع ذلك مع عبد الملك حين صرفها عن أخيه عبد العزيز إلى ابنه الوليد ، ولما أرادها سليمان لابنه أيوب جاراه جرير فقال :

إنَّ الإمام الذى تُرْجَى نوافلُه بعد الإمامِ ولىُّ العهدِ أيُّوبُ

وهكذا كان جرير لسان حال الأمويين ، يصفح عما ينتوون من أمر ، ويصممون من عزم ، أو هو صحيفتهم السيارة تنشر دعوتهم ، بل إنه كان مذيعاً لمبادئهم ومآثرهم ، يوجه إذاعاته من المِرْبَد والكُناسة[1] ، ومن بوادى البصرة وقصر الخلافة ، فيلتقطها العرب ، ويذيعونها فى سائر البقاع ، فتستولى على الأسماع ، وتحدث أثرها النفوس .

---

(١) الكُناسة : موضع بالكوفة .

٢ ـ الشاعر الغنائى

(ا) طريقته :

كان ذا بديهة حاضرة ساعدته على ارتجال بعض أشعاره . ومن طرق قرضه للشعر أنه إذا أراد أن يؤبد قصيدة ، أنشأها ليلاً ، يشعل سراجه ويعتزل ، وربما علا السطح وحده فاضطجع ، وغطى رأسه رغبة فى الخلوة بنفسه ، وقد صنع مثل ذلك فى قصيدته التى أخزى بها بنى نمير ، إذ سهر لها وطالت ليلته إلى أن قال :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ منْ نُمَيْرٍ فَلاَ كَعْباً بَلَغْتَ وَلَا كِلاَبَا

فأطفأ سراجه ونام ، وقال : قد والله أخزيتهم [١] .

وكان يقصر الممادحة ويطيل الهجاء على خلاف مذهب الشعراء ، ويقول لبنيه : إذا مدحتم فلا تطيلوا الممادحة ، وإذا هجوتهم فخالفوا . ويقول : إذا هجوت فأضحك [٢] . وكان قليل التنقيح لألفاظه [٣] ، ولا يتكلم حتى تطلع الشمس ، فإذا طلعت قذف المحصنات [٤] ، وكثيراً ما يستحث قريحته بشرب النبيذ ، ويتمرغ فى الرمل أو على الفراش ، ويهمهم ، ويحبو على الفراش عريان حتى يخاله الناظر إليه أصيب بجنّة [٥] وحين قال له الفرزدق :

إنى أَنَا الْمَوْتُ الَّذِى هُوَ ذَاهِبٌ بنَفْسِكَ فَانْظُر كَيْف أَنْتَ مُحَاوِلُهُ

---

(١) « العمدة » ١ / ٢٦ و ١٣٨ .
(٢) « العمدة ٢ / ١٤٠ .
(٣) « العمدة »
(٤) « البيان والتبيين » .
(٥) « تاريخ آداب اللغة العربية » .

وحلف بالطلاق أن جريراً لا يغلبه فيه ؛ لبث جرير يتمرغ فى الرمضاء ويقول : أنا أبو حَزْرة حتى قال :

أَنَا الدَّهْرُ يُفْنِى الْمَوْتَ والدَّهْرُ خَالِدُ فَجِئْنِى بِمِثْلِ الدَّهْرِ شَيْئاً يُطَاوِلُه

فغلبه وطلق عليه زوجه .

(ب) صياغة شعره :

صاغ الشعر مبكراً ، متأثراً ببيئته الشعرية ، والسياسية والاجتماعية ، مستجيباً للتجارب النفسية ، والإثارات الوجدانية ، مستلهماً سليقة فياضة ، وطبعاً دُفاقاً ، يرسل القصيد متى شاء ، ويصرفه كيف يشاء ، سهلاً عذباً ، فخماً جزلاً ، قوياً رصيناً ، محكم القافية ، خالياً من التكلف والحشو والتعقيد ، تتسق قوافيه ، وتأتلف ألفاظه ومعانيه ، فكأنما يغترف من خضمّ البحر ، ويصب فى معين الشعر ، ما تطرب له نفسه ، ويعجب به غيره ، من عامة القوم وخاصتهم ، فجرى على الألسنة ، وسرى بين الربوع ، يرفع الوضيع ، ويضع الرفيع ، ويفحم الشعراء ، ويلجم البلغاء .

وجرير كغيره من الشعراء الإسلاميين ، تتمثل فى ألفاظه ومعانيه الحياة البدوية الإسلامية أصدق تمثيل ، لأنه لم يكن قد تأثر بعلوم الفرس واليونان والهنود كما تأثر المحدثون من بعد ، بل كان معينه البيئة البدوية ، وما زخرت به الحياة الإسلامية الجديدة من آداب وتشريع وحكمة ، وما مزجت به نفسه من تدين وعفة ، وشاعرية مطبوعة ، فكانت معانيه قريبة فطرية ، سهلة الورود على الخاطر ، مصبوبة فى قوالب محكمة من جزالة اللفظ ، وفحولة العبارة ، وسلامة الوزن ، وحلاوة النبر ، مما ينساب إلى الأسماع فى خفة ورفق ، فتستريح إليه النفوس .

(ج) فنون شعره :

بذّ جرير الفحول فى الهجاء والغزل والرثاء ، وأكثر المديح ، ولكنه لم يسبق الأخطل فيه ، وأجاد الفخر والحماسة ، غير أن الفرزدق فيهما أشعر منه ، وله متفرقات لا تبلغ ما بلغته الفنون السابقة من الجودة والكثرة ، وأغلبها جاء منبثًّا فى ثنايا قصائده ، كالوصف والعتاب والشكوى . وكثير من قصائده ولا سيما ما كان منها مدحاً أو هجاء تنهج النهج الجاهلى : من الابتداء بذكر الديار والبين ، والحنين والحبيب ، فى غزل رقيق ، يُعدُّ به للقول نفسه ، ويجذب إليه غيره ، ثم يصف رحلته وراحلته وما أصابه من نصب ، وما اعتور ناقته من كلال وهزال ، فى سبيل الوصول إلى من يقصد ، ثم يتخلص من هذا إلى التصريح بصفات الممدوح ، والتلميح بحاجته ، وقد يتعرض لهجاء الأعداء ، وربما افتخر بنفسه وقومه ، وفى تضاعيف ذلك يرسل الحكمة ، ويضرب الأمثال . وفيما يلى تفصيل لأهم أغراض شعره :

١ — النسيب والغزل :

بدأ به أكثر قصائده مقلداً الجاهليين ، وسلك فيه طريقتهم من التصون والتجمل ، فوصف زوجاته بقسامة الوجه ، وملاحة القد ، وطيب الحديث والرائحة ، وذكر الديار والدمن وفراق الأحبة ، وخوالج النفس بعبارة فخمة عذبة ، عامرة باللفظ الجزل ، والمعنى الشريف ، ولم يذهب مذهب معاصريه الغزليين بالحجاز ، فلم يتبذل فى عشقه ، وعزف عن التأنث فى الغزل ، ومحاكاة النساء فى حديثهن وتدللهن وحوارهن ودعابتهن ، وقصّ القصص عنهن ، ولم يتهالك فيه تهالك القيان ومجّان الموالى والمغنين ، وامتاز بالرقة ، وخفة الوقع على السمع ، وقوة أسره للنفس ، وحوّكه فى القلب ، مع أنه لم يصدر منه عن وجد وهيام ، ولو عشق ولم يمعن فى الهجاء ، لكان إمام الشعراء العشّاق ، وفى ذلك يقول : ما عشقت قط ، ولو عشقت لنسبت نسيباً تسمعه العجوز ، فتبكى على ما فات من

شبابها . ويمكننا أن نعلل تفوقه فى النسيب وتوفيقه مع عزوفه عن النساء برقة طبعه وفطرته الإنسانية الصادقة الشعور ، وتدينه وعفته ، وكان يعتمد على النسيب كفن موسيقى رفيع ، حلو النبر ، طويل النفس ، مطرد الخيال ، خصيب الوجدان ، يفتتح به مقطوعاته ، ويرضى نفسه ، ويعدها للقول ، ويطرب غيره ، ويستلب منه السمع ، فهو بلا ريب أستاذ النسيب العربى الذى تفتتح به القصائد ، فسبق صاحبيه فيه ، وتتلمذ عليه البحترى ، ومن عيون غزله :

إِنَّ الْعُيونَ الَّتِى فى طَرْفِهَا حَوَرٌ ... قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلَانَا
يصْرَعْنَ ذَا اللُّب حتى لا حَرَاكَ بِه ... وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللهِ إِنْسانَا

٢ – الرثاء :

ثالث ثلاثة الفنون الشعرية التى سبق فيها زميليه ، وحق له أن يسبق فيها ، فقد اطمأنت نفسه إليها ، وأجابها إلى ما تطمئن إليه ، ولنفسيته أبعد الأثر فى شعره ، فقد مضت به ، تتفقد أمجاد عشيرته ، فلم تجد ما تصبو إليه ، وانطلقت به تفتش عن ثراء أبيه ، فلم تعثر على ما يحقق الأمل ، ويحيى الرجاء ، فآوت معه إلى حظيرة الدين ، تتعلق بأهداب الحياة الإسلامية ، وتخلص التنسك لله ، فأفاض عليها طهارة وعزة ، وصفاء وعفة ، وتمتع جرير بنفسية صافية ، تسمو بدينها ، وقد تأسى على ما فاتها من دنياها ، إلى جانب طبع رقيق ، وعاطفة مشبوبة ، وسليقة موهوبة ، فسبق فيما سبق فيه ، واستجابت نفسه للشعر العاطفى واستبد بها الأسى عند النوازل ، فأثار حزنها الكامن ، وفاضت مراثيه بالأنين ، فى دقة ولين ، ورنين حزين ، ينفذ إلى القلوب الواجدة ، فتجد فى أبياته صَدًى لأساها ، ورفيقاً يواسيها ، ولهذا كان شعره الباكى مع قلته أكثر ذيوعاً بين الناس ، يناح به نوحاً على الأموات والقتلى وحين رثى زوجه خالدة بمرثيته :

لَوْلَا الْحَيَاءُ لَعَادَنِى اسْتِعْبَارُ ... ولَزُرْتُ قَبْرَكِ وَالْحَبِيبُ يُزَارُ

تناقلها الرواة . وبكى بها الباكون . حتى إن قوم الفرزدق بكوا بها على هوالكه ، وسماها جرير الجوْساء [١] ، لذهابها بين البلاد .

قال بشار لابن سلام : كانت لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق ، ولقد ماتت النوار . فقاموا ينوحون عليها بشعر جرير . ثم سأله ابن سلام : وأى شيء من المراثى إلا التى رثى بها امرأته ؟ فأنشده لجرير يرثى ابنه سوادة . ومات بالشام . وكان به معجباً [٢] .

فَارَقْتَنِى حِينَ كفّ الدَّهْرُ مِنْ بَصَرِى ... وَحِينَ صِرْتُ كَعَظْمِ الرُّمَّةِ الْبَالِى

٣ – الفخر والحماسة :

لما كانت الحماسة هى فن الحميّة والقوة والتسامى . فقد آثرنا أن نقرنها بالفخر لما بينهما من وثيق الصلة وشدة التقارب ، مقتفين أثر جرير الذى آخى بينهما فى شعره .

لقد استطاع أن يفخر باستقامته ، وشهامته ، وصولة شعره ، وسيرورته .

وَأَدْرَكتُ مَنْ قَدْ كانَ قَبْلِى وَلَمْ أَدَعْ ... لِمَنْ كانَ بَعْدِى فى الْقَصَائِدِ مَصْنَعَا

ولكنه لم يستطع الفخر بعشيرته من كليب ومنهم أبوه عطية ، لخمول شأنهم فى الغابر والحاضر ، ورقة حالهم ، ودناءة شحهم ، مما دعاه إلى التماس الفخر فى قبيلته العليا بنى يربوع ، ففاخر بشرفهم وبسالتهم ، وعلو كعبهم فى الجاهلية والإسلام ، وكثيراً ما عيره خصومه بمفاخرته بغير أهل بيته الأدنين . وكان هذا من أشد الهجاء عليه ، غير أن روعة قصائده غطت على ضعة أبيه وهوانه وبخله .

وقد وجد فى تميم – التى يجتمع مع الفرزدق فى الانتساب إليها – مآثر شتى وفى قيس عيلان حليفته مواقفها ووقائعها ، وفى خندف ومضر وقريش مفاخرها وأحسابها وأنسابها ، وفى الخلافة والنبوة صلة يعتز بها :

---

(١) من جاس جوساً وجوساناً بين البيوت والديار : تردد وطاف بينها فى الغارة .

(٢) « الأغانى ونهذبه » .

مُضَرٌ أَبِي وَأَبُو الْمُلُوكِ فَهَلْ لَكُمْ يَا خُزْرَ تَغْلِبَ مِنْ أَبٍ كَأَبِينَا[1]
هَذَا ابْنُ عَمِّي فِي دِمَشْقَ خَلِيفَةٌ لَوْ شِئْتُ سَاقَكُمُ إِلَيَّ قَطِينَا[2]

ومن أبياته السائرة فى الفخر :

إذا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وأشاد فى حماسته بمواقف القتال ، وضروب الشجاعة . وأمجاد السيادة كقوله :

أَلَا رُبَّ جَبَّارٍ عَلَيْهِ مَهَابَةٌ سَقَيْنَاهُ كَأْسَ الْمَوْتِ حَتَّى تَضَلَّعَا

٤ – أماديحه :

بدأ جرير أماديحه بالنسيب مقلداً شعراء الجاهلية . واستمدّ معانيه الجديدة المتنوعة من الحياة الإسلامية ، والعناصر الدينية . فوصف الخلفاء بالعدل والأمانة وإقامة الحدود والفرائض . والاهتداء بالكتاب والسنة ، وعصيان داعى الهوى ، واستعان فى الدفاع عنهم بالمذاهب العقلية السائدة فى عصره . وقد سبق القول فى هذا . وفى اتصاله بالخلفاء والولاة . ولم يطل المديح إطالته فى الهجاء . مع غرامه بتوليد المعانى . واستقصاء صفات الممدوح . وقلما يخلطه بفخر أو هجو ؛ أو تعرض للهاشميين مراضاة للناس ، وهذا الفن هو الذى دمغه بالنفعية ، فقد اتخذه وسيلة للتكسب والاستجداء فى حذق وكياسة . وقد جرّه إلى هذا فقره ، ورغبة الخلفاء فى استمالة الشعراء . بإجزال العطاء . ليمكنوا لهم فى الأرض .

وتناول مدحه الخلفاء والأمراء والولاة ومنهم الحجاج . والقيسية أعداء تميم فى الجاهلية والإسلام . كما مدح ذوى اليسار والموالى من العجم وسوّاهم بالعرب فى الشرف . فأغدقوا عليه الهبات ، وحفظوا شعره ورووه ، وتباهوا به . وقد سبقه

---

(١) خزر : ضيقو العيون . والمراد بخزر تغلب : خنازير تغلب .

(٢) القطين : الخدم والأتباع . وحين سمع عبد الملك هذا البيت قال : مازاد ابن المراغة على أن جعلنى شرطياً ، أما إنه لو قال : « لو شاء ساقكم إلى قطينا » لسقتهم إليه كما قال .

الأخطل فى كثير من نواحى المديح ، لتفرغه للخلفاء ، كما سبقه فى الفخر الفرزدق ، لعراقة أصله ، ولحاجة هذين الفنين إلى فخامة وضخامة وصلابة ؛ لم توات جريراً كما واتت صاحبيه . ولم يمدح ليرضى قلبه ؛ بل ليسعف جيبه ، وكان يسترسل مع هواه فى نسيب طويل ، فلا يصل إلى المديح إلا وقد استفرغ جهده ، فيأتى بأبيات قليلة لا تبلغ فى جودتها ، ما بلغته فنونه الأخرى إلا ما ندر من مدحاته المشهورة ، التى مدح بها أفذاذ الرجال وأعلام الأدب كالحجاج ، وعبد الملك الذى يقول فيه :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وأَنْدَى الْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

٣ ـ الشاعر الهجَّاء

(ا) التحامه بالشعراء :

اشتدت الملاحاة بينه وبين كثير من الشعراء ، فأفحمهم جميعاً ، وسقطوا ، ولم يثبت له غير الفرزدق والأخطل ، ثم مات الأخطل ؛ فبقى والفرزدق فى عراك شعرى عنيف إلى أن وافاه نبأ وفاة الفرزدق سنة ١١٠ هجرية .

قال الأصمعى : إن جريراً كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعراً فينبذهم وراء ظهره ، ويرمى بهم واحداً واحداً ؛ ومنهم من كان ينفخه فيرمى به ، وثبت له الفرزدق والأخطل .

وأول من التحم بهم من الشعراء ، غسان السَّليطى ، حين اختلف بنو جُحَيش مع بنى الخطفى ـ وكلاهما من يربوع ـ فى غدير بالقاع ، فاستعان بنو جحيش بغسان ، فهجا بنى الخطفى والناس مجتمعون عليه ، ورآه جرير وكان يرعى غنم أبيه ، فركب بعيراً وأقبل وقد حمى فنطق بالشعر رَجزاً هجا به غسان ومن معه أفحش هجاء . فاعتزّ به قومه ، وتمادى الهجاء بينهما حتى قال غسان :

لَعَمْرِى لَئِنْ كانَتْ بَجِيلَةُ زَانَها جَرِيرٌ فَقَدْ أَخْزَى كُلَيْباً جَرِيرُها

فأجابه جرير بقصيدته :

أَلا بكَرَتْ سلْمى فجَدَّ بُكُورُها وَشَق الْعصَا بَعْدَ اجْتِماعٍ أَمِيرُها

وتدخل بينهما « العَنَّاب » أعورُ بنى نبهان ، فقال يهجو جريراً :

وأَنْتَ كلَيْبِيٌّ لِكَلْبٍ وَكَلْبَةٍ لَهَا عِنْد أَطْنَابِ الْبُيُوت هَرِيرُ

فقال جرير يردّ عليه :

وَجَدْنا بَنى نَبْهَانَ أَذْنابَ طَيِّئٍ وَلِلنَّاسِ أَذْنابٌ تُرَى وَصُدُورُ
وَأَعْوَرُ مِنْ نَبْهَانَ أَمَّا نهارُهُ فَأَعْمَى وَأَمَّا لَيْلُهُ فَبَصِيرُ

ولما سقط غسان وصاحبه ، أعانه البعيث من بنى مجاشع قوم الفرزدق من تميم ، فهجاه جرير وسبّ نساء مجاشع سبًّا منكراً ، وكان الفرزدق قد قيد نفسه حتى يحفظ القرآن ، وعاهد الله ألا يهجو أحداً أبداً ، فجاءته نساء بنى مجاشع وقلن له : قبح الله قيدك فقد هتك جرير عورات نسائك ، فلحيتَ شاعر قوم، فأحفظنهُ ، ففضّ قيده وقال :

أَلا اسْتَهْزَأَتْ مِنِّى هُنَيْدَةُ أَنْ رَأَتْ أَسِيرًا يُدَانى خَطْوَهُ حَلَقُ الحِجْلِ[1]

ودافع عن قومه فى وجه جرير ، فهجاه وهجا البعيث فى قصيدته .

عُوجِي علينا وارْبعِي ربّةَ البَغْلِ وَلَا تَقْتُلِينى لايَحِلُّ لَكُمْ قَتْلى

ولم تكن للفرزدق رغبة فى الالتحام بجرير ، ولكن البعيث جرّه إلى المعركة فكان يهجو جريراً ويهجو البعيث معه فى مثل قصيدته :

أَلَمْ تَرَ أَنِّى يَوْمَ جَوِّ سُوَيْقَةٍ بَكَيْتُ فَنَادتْنى هُنَيْدَةُ مالِيَا

(١) هنيدة : عمة الفرزدق . الحجل : القيد .

فأجابه جرير بقصيدته الرائعة :

أَلا حيَّ رَهْبَىً ثم حَيَّ المَطَـالِيَا فَقَدْ كانَ مَأْنوساً فَأَصْبَحَ خَالِيَا

وما فتئا يتهاجيان ، ولا يلتفتان إلى البعيث . فسقط بينهما .

ولما بلغ الأخطلَ تهاجي جرير والفرزدق قال لابنه مالك : انحدر إلى العراق حتى تسمع منهما . فتأتيني بخبرهما ، فانحدر مالك حتى لقيهما ، واستمع منهما ثم لقي أباه فقال : وجدت جريراً يغرف من بحر . ووجدت الفرزدق ينحت من صخر ، فقال الأخطل : الذي يغرف من بحر أشعر ؛ ثم قال :

إنى قَضَيْتُ قَضَاءً غَيْرَ ذِى جَنَفٍ لَمَّا سَمِعْتُ وَلَمَّا جَاءنى الْخَبَرُ
إن الفَرَزْدَقَ قد شَالَتْ نَعَامَتُهُ وعَضَّـهُ حَيَّةٌ منْ قَوْمِهِ ذَكَرُ

وحين علم بشر بن مروان والي الكوفة بقدوم الأخطل عليه أرسل إليه محمد ابن عمير بن عطارد المجاشعي ، ليرشوه بألف درهم وبغلة وكسوة وخمر . ويقول له : لا تعنْ على شاعرنا ، واهج جريراً . فإنك قد قضيت له على صاحبنا ، فقل له أبياتاً تقضي بها لصاحبنا عليه ، فأنشد الأخطل أبياتاً منها :

اخْسَأْ إليك كليب إنّ مُجَاشِعا وَأَبا الفَوَارِسِ نَهْشلا أَخَوَانِ
وَإذا سَمِعْتَ بِدارِمٍ قدْ أَقبَلُوا فاهرُبْ إليكَ مخافَةَ الطوفانِ

فناقضه جرير بقصيدته :

لِمَنِ الديارُ ببُرْقَةِ الرَّوْحَانِ إذ لا نَبِيعُ زماننا بزمان

ومنها :

يَاذَا الْغَبَاوَةِ إنَّ بِشْرًا قدْ قَضَى أَلَّا تَجُوزَ حُكُومَةُ النَّشْوَانِ
فَدَعُوا الحُكُومَةَ لَسْتُمُ منْ أَهْلِهَا إنَّ الحُكُومَةَ فى بَنى شَيْبان

ورد الفرزدق بنقيضته :

يا بْن المراغةِ ، وَالْهِجَاءُ إذا الْتَقَتْ أَعنـــاقُه وَتَمَاحَكَ الْخَصْمَانِ

وكان الأخطل قد أسنّ ، فلم يصمد لجرير ، ولكنه بقى يعين الفرزدق عليه وهو نادم على دخوله بينهما ، ولما سمع قول جرير :

جَارَيْتَ مُطَّلِعَ الجِرَاءِ بِنَابِهِ رَوْقٌ شَبِيبَتُهُ وعمرُك فانِ

قال : صدق إنه لشاب ، ولقد ولّيت . . . ولم يلبث أن هلك ، فقال جرير :

زار القبورَ أبو مالكٍ فأَصْبَحَ أَهونَ زوَّارِهَا

فأجابه الفرزدق بقوله :

زار القبـــورَ أبو مالكٍ رَغْمِ العُدَاةِ وأوتارِها[1]

وتعرض الراعى النميرى القيسى شاعر مضر لجرير بقوله :

يا صاحبيَّ دنا الأَصِيلُ فَسِيرا غَلَبَ الفَرَزْدَقُ فى الْهِجَاءِ جَرِيرَا

فلامه جرير لأنه قيسى ، وجرير يذود عن قيس ، فأصاخ له بدء ذى بدء ثم عنفه ابنه جندل وسب جريراً ، فأقسم جرير ، ليرجعنه إلى بنى نمير بأعباء ثقال ، وسهر ليلته مع راويته وسراجه ، حتى أصبح عليهم فى المربد وهو ينشدهم الدَّمَّاغة :

أَقِلِّى اللومَ عاذِلَ والعِتَابا وقولى إن أصبتُ لقد أصابا

فهجا فيها الراعى وابنه وقومه والفرزدق ورهطه ، وافتخر بقومه ، ولهجت بها الألسنة ، وذهب الراعى بوزرها ، ولم تقم له قيامة بعدها .

---

(١) « النقائض وتاريخها » .

وهكذا كان الشعراء يدخلون بين فحلى تميم ، وكان جرير يسكتهم أفراداً وجماعات حتى غلب ما يقرب من ثمانين شاعراً منهم : العباس الكندى ، وسُراقة البارقى ، وعمر بن لجأ التيمى ، والبَلْتَع المستنير بن سَبْرَة العنبرى ، وجِفْنَة الهزَّانى العَنْزِى ، والحمَّانى ، والصَّلتان العبْدِى ، وغير هؤلاء كثير ممن أسقطهم جرير ، ولم يصمد له غير الفرزدق يؤازره الأخطل .

(ب) أهاجيه :

لم يبدأ بالهجاء أحداً ، بل كان ينتقم ممن ظلم قومه ، أو تعرض له ، أو أعان عليه .

قال له الحجاج : إيه يا عدو الله ، علام تشتم الناس وتظلمهم ؟ فقال : جعلنى الله فداء الأمير ، والله إنى ما أظلمهم ، ولكنهم يظامونى ، فأنتصر[1] .

وسئل : علام تقذف المحصنات ؟ قال : إنهم يبدءونى ثم لا أعفو[2] .

وقد ذكرنا فيما سبق أسباب غلبته فى الهجاء ، وأخبار التحامه بالشعراء ، وأنه أسقطهم جميعاً ، ولم يصمد له غير الفرزدق يؤازره الأخطل ، ومما أعانه عليهما : فسق الأول ونصرانية الثانى وإدمان شربه الخمر ، مع تدين جرير وعفته .

واتخذ مع معارضيه المربد سوقاً لأهجياتهم ، ينشدونها بين عاصف من التصايح والتهريج والصفير ، ويحاول كل منهم أن يجد إلى القلوب سبيلا ، فكان أقربهم إليها وصولا ، وأعنفهم خصومة ، وأقذعهم هجاء ، وأقدرهم على امتلاك ناصية القول ، وأبرعهم اقتناصاً للمعنى وتوليده ، وأعذبهم أسلوباً ، وأكثرهم تهكماً واستهزاء ، يرمى خصمه بما يضحك السامعين ، ويعجب من مكابرته له ، وتبذله بين الناس ، ويحط من شأن قبيلته ، ويلبسه ثوب السخرية والصغار ،

---

(١) « الأغانى ومهذبه » .

(٢) نفس المرجع و « العمدة » .

ويهتك الحرمات والأعراض ، وكثيراً ما اختلق الأكاذيب فى سبيل قهر منازله ، فكان الناس يخشون شرَّةَ لسانه .

ومن هجائه الذى يتسم بعفة المذهب قوله :

لو أن تَغْلِبَ جَمَّعتْ أحسابهَا يوم التَّفَاخُرِ لَمْ تَزِنْ مِثْقالا

وقوله :

فغض الطَّرْفَ إنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلاَ كَعْباً بَلَغْتَ وَلَا كِلاَبَا

غير أن البيت الثانى أشد هجاء ، لما فيه من التفضيل ، فقد قالوا : أشد الهجاء الهجاء بالتفضيل[1] . وجميع الشعراء يرون قصر الهجاء أجود ، وترك الفحش فيه أصوب ، إلا جريراً فإنه قال لبنيه : إذا مدحتم فلا تطيلوا المادحة ، وإذا هجوتم فخالفوا . ويقول : إذا هجوت فأضحك [2] . وتأثر به ابن الرومى فسار على منواله فى أهجياته . ومن الاحتقار قول جرير [3] :

ويُقْضَى الأَمرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ وَلَا يُسْتَأْذَنُونَ وهُمْ شُهُودُ

(ج) النقائض :

وَلَّدَ التحام جرير بالشعراء فنًّا جديداً ، يقوم على الحوار والمناظرة والتحدى وقد اتخذته الجماهير مادة للتسلية والفكاهة ، ذلك هو فن النقائض : وفيه ينظم الشاعر قصيدة ، ثم يبادر مُقارعه فينقض هذه القصيدة بأخرى تجرى مع الأولى فى وزنها وقافيتها ، ويحاول أن يظهر براعته وتفوقه فى الصياغة الفنية ، والنبرات الموسيقية ، ومعانى الهجاء أو الفخر .

وتعد النقائض من الوثائق التاريخية الجامعة للحوادث والأيام ، والأحساب

(١ و٢ و٣) « العمدة » .

والأنساب . والمناقب والمثالب . وأخبار العرب فى جاهليتها وإسلامها .
وأشهرها نقائض جرير مع الفرزدق والأخطل .

١ — نقائض جرير والفرزدق :

ناقض جرير الفرزدق فى كثير من قصائده . فنسبه إلى القين . وغمزه بأن فُقَيْرَةَ جدتهم بنت زنا . ورماه بنفور زوجه منه . وغدر قومه بالزبير . وقتل أعْيَنَ المجاشعى أبى زوجه النوار ، كما شنع بجعْشن أخت الفرزدق . وعيره بخيبته فى الضرب بالسيف الذى أعطاه إياه سليمان بن عبد الملك ليقتل به أسيراً روميًّا ، فنبا فى يده . وألقاه بين ضحك سليمان . وسخرية القوم . ولا ينسى جرير مفاخر قومه ومخازى مجاشع ومن هذه النقائض قصيدة الفرزدق :

تَحِنّ بِزَوْرَاءِ الْمَدِينَةِ نَاقَتِى حَنِينَ عَجُولٍ تَبْتَغِى الْبَوَّرائِم (١)

ومنها :

أَدِرْسَانَ قَيْسٍ لا أَبَاً لَكَ تَشْتَرِى بِأَعْرَاضِ قَوْمٍ هُمْ بُنَاةُ الْمَكارِمِ (٢)

نقضها جرير بقصيدته :

أَلَا حَيِّ رَسْمَ الْمَنْزِلِ الْمُتَقَادِمِ وما حَلَّ مُذْ حَلَّتْ بِهِ أُمُّ سَالِمِ

ومنها :

وإنى وقَيْساً يا بْنَ قينِ مُجَاشِعٍ كريمٌ أُصَفِّى مِدْحَتِى لِلْاكارِمِ

---

(١) العجول : الثكلى وهى المرأة تثكل أولادها ، شبه حنين الناقة بحنين الثكلى وطلبها لولدها البو : جلد حوار يحشى تماماً لترأمه الناقة ، وتحسبه ولدها ، فينزل لبنها .

(٢) درسان : خلقان الواحد دريس .

٢ – نقائض جرير والأخطل :

وفيها ينصر جرير قومه والقيسيين ، مشيداً بمفاخر أيامهم ، ومآثر أحسابهم وأنسابهم ، ويرمى التغلبيين بكل آبدة وفحش مقذع . ويهجم على الأخطل ، فيدمغه بالنصرانية والجزية ، واحتساء الصهباء ، والقذارة والغباء ، والبعد عن قبيلة الخليفة والسلطان . ومن هذه النقائض قصيدة الأخطل :

حَيَّ الظعائنَ إذ رحَلْنَ بُكُورَا بِرُوَيْثَتَيْن فقد رفعن خدروا

ومنها :

أَزَعمْتَ أن بنى كليبٍ سادةٌ قبحاً لذلك معشراً مذكوراً

نقضها جرير بقصيدته :

رحل الخليط فَزَايَلُوكَ بُكورا وَحَسِبْتَ بَيْنَهُمُ عليكَ يَسِيرَا

ومنها :

اللهُ فَضَّلَنَا وأخْزَى تغْلِباً لَنْ تَسْتَطِيع لِمَا قَضَى تَغْيِيرَا

٣ – جرير والفرزدق والأخطل :

وقد اتفقت العرب على أن أشعر أهل الإسلام ثلاثة : جرير والفرزدق والأخطل . واختلفوا فى تقديم بعضهم على بعض[1] . ثم قضت كثرتهم للفرزدق فى الفخر . وللأخطل فى المديح ونعت الخمر . وخصوا جريراً بالفضل فى الهجاء والغزل والرثاء .

أما تقدم الفرزدق فى الفخر . فلتقدمه على صاحبيه فى شرف العشيرة . وفخامة العبارة .

---

(١) « الوسيط » و « الأغانى » و « النقائض » و « العمدة » .

وأما سبق الأخطل فى نعت الخمر ، فلأنهما لم يجريا معه فى ميدانها ، لإسلامهما ونصرانيته ، فانفرد بها دونهما ، وأعانه على السبق فى المديح عنايته بالصياغة ، وتعمقه بالصنعة ، وحرصه على إرضاء الخلفاء حماية للنصرانيين من تغلب ، وردًّا الكيد خصومه ، غير أن اعتداده بالمعانى الجاهلية ، وتخلفه عن الإفادة من العناصر الإسلامية ، جعل جريراً يسبقه أحياناً فى هذا المضمار .

وجاء تبريز جرير فى الهجاء بسبب عنفه فى خصومته ، وسخريته من غريمه ، وقسوته فى انتهاك الحرمات ، وما تميز فى الغزل والرثاء إلا لتميزه بالعفة والتدين ، وسجاحة النفس ، وسلامة الطبع ، وعذوبة المنطق ، وصدق الشعور .

ومن الشواهد على ذلك ما روى من أن الفرزدق دخل على سكينة بنت الحسين ، فقالت له : من أشعر الناس ؟ قال : أنا . قالت : كذبت أشعر منك الذى يقول :

بِنَفْسِى مَنْ تَجَنُّبُه عَزِيزٌ عليَّ وَمَنْ زِيارتُهُ لِمَامُ
وَمَنْ أَمْسَى وَأَصْبَحَ لا أَرَاهُ ويطْرُقُنِى إذا هَجَعَ النِّيامُ

ثم دخل عليها فى اليوم الثانى ، فقالت له : من أشعر الناس ؟ قال : أنا . قالت : كذبت أشعر منك الذى يقول :

لَوْلَا الْحيَاءُ لَهَاجَنِى اسْتِعْبَارُ وَلَزُرْتُ قَبْرَكِ وَالْحَبِيبُ يُزَارُ

وفى اليوم الثالث أعادت السؤال ، وأعاد الجواب ، فقالت : أشعر منك الذى يقول :

إنَّ العُيُونَ التى فى طَرْفِهَا مَرَضٌ قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يحْيينَ قَتْلَانا

والأبيات لجرير فى الغزل والرثاء ، ولما سئل بشار بن برد : أى الثلاثة أشعر ؟ قال : لم يكن الأخطل مثلهما ، وكانت لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق ، وأبدى إعجابه بأبيات لجرير يرثى ابنه سوادة .

وقال مروان بن أبى حفصة :

ذَهَبَ الْفَرَزْدَقُ بِالْفَخَارِ وإنَّما حُلْوُ الْقَرِيضِ ومُرُّهُ لِجَرِيرِ

ومن قدم جريراً احتج بأنه كان أكثرهم فنون شعر ، وأسهلهم ألفاظاً ، وأقلهم تكلفاً وأرقهم نسيباً ، وأهتكهم لعدوه ستراً ، وأغزرهم بحراً ، إن طَلَبَ لم يُسْبَقَ ، وإن طُلِبَ لم يُلْحَقَ[1] .

٤ — سيرورة شعره

تأثرت نفس جرير الصافية بالحياة الجديدة ، فصوّرها للناس كما أحبّوها ، وابتدع لهم فى شعره من فن القول ، وجديد المعانى ، وضروب الخيال ، وسهولة الأساليب ، وعذوبة الموسيقى ، ما أعجبهم وأطربهم ، فتعلقوا به ، وأقبلوا عليه يحفظونه ، وينشدونه فى كل مكان ، حتى اتهمت الجنّ بإذاعتها ، فكان بذلك أكثر أهل زمانه سيرورة شعر ، وقرباً إلى النفوس .

قال الأخطل للفرزدق : أنا والله أشعر من جرير ، غير أنه رزق من سيرورة الشعر ما لم أرزقه ، وقد قلت بيتاً لا أحسب أن أحداً قال أهجى منه وهو :

قَوْمٌ إذَا اسْتَنْبَحَ الْأَضْيافُ كَلْبَهُمُ قَالُوا لِأُمِّهِمُ بُولِي عَلَى النَّارِ

فلم يروه إلا حكماء أهل الشعر . وقال هو :

والتَّغْلِبِيُّ إذَا تَنَحنَحَ لِلْقِرى حكَّ اسْتَهُ وَتَمَثَّلَ الْأَمْثَالَا

فلم يبق سقاء ولا أمة حتى روته . قال الأصمعى : فحكما له بسيرورة الشعر[1] . وكان جرير يعتزّ بذلك . قال وهو يهاجى البعيث :

فَإنِّى لَهَاجِيهِمْ بِكُلِّ غَرِيبَةٍ شَرُودٍ إذَا السَّارِى بِلَيْلٍ تَرَنَّمَا
غَرائِبَ أُلَّافاً إذَا حَانَ وِرْدُهَا أَخَذْنَ طَرِيقاً لِلْقَصَائِدِ مُعْلَمَا

(١) « الأغانى » و « العمدة » ٢ / ١٤٦ .

٥ ـ منزلته بين الشعراء

مما تقدم نعى سر إعجاب الرواة والنقاد فى سائر العصور بشعره ، وتقديمهم لبعض أبياته القريبة المعنى على أبيات فحول الشعراء .

سئل أعرابى راوية : أى الشعراء عندكم أشعر ؟ قال : بيوت الشعر أربعة : فخر ومديح وهجاء ونسيب ، وفى كلها غلب جرير[1] .

وقال جرير لرجل من بنى طهيَّة : أينا أشعر أنا أم الفرزدق ؟ فقال له : أنت عند العامة ، وهو عند العلماء ، فصاح به جرير : أنا أبو حزرة غلبته ، ورب الكعبة ما فى كل مائة رجل عالم واحد .

ونزل الفرزدق على الأحوص حين قدم المدينة ، فقال الأحوص : ما تشتهى ؟ قال : شواء وطلاء وغناء ، قال : ذلك لك ، ومضى به إلى قينة ، فغنته :

أَلاَحَيِّ الديارَ بِسَعْدَ إنِّى ... أُحِبُّ لِحُبِّ فَاطِمَةَ الدِّيارا
أَرَادَ الظَّاعِنُونَ لِيُحْزِنونِى ... فَهَاجُوا صَدْعَ قَلْبِى فَاسْتَطَارَا

فقال الفرزدق : ما أرق أشعاركم يا أهل الحجاز وأملحها ! فقال الأحوص : أو ما تدرى لمن هذا الشعر ؟ قال : لا والله ، قال : فهو والله لجرير يهجوك به . فقال : ويل ابن المراغة ، ما كان أحوجه مع عفافه إلى صلابة شعرى ، وأحوجنى مع شهوانى إلى رقة شعره .

وقال الرجل للفرزدق : يا أبا فراس ؛ هل تعلم اليوم أحداً يرمى معك ؟ فقال : لا والله ، ما أعرف نابحاً إلا وقد استكان ، ولا ناهشاً إلا وقد انجحر ، إلا الذى يقول وذكر أبياتاً لجرير منها :

لِسانى وسَيْفِى صَارِمَانِ كِلاَهُمَا ... ولَلسَّيْفُ أَشْوى وَقْعَةً مِنْ لِسَانِيَا

---

(١) « مهذب الأغانى » ٥/٦٧ .

وسأل رجل جريراً : من أشعر الناس ؟ فقال له : قم حتى أعرفك الجواب . فأخذ بيده . وجاء به إلى أبيه عطية . وقد أخذ عنزاً له فاعتقلها . وجعل يمص ضرعها . فصاح به : اخرج يا أبت . فخرج شيخ دميم رث الهيئة . وقد سال لبن العنز على لحيته . فقال ألا ترى هذا ؟ قال : نعم . قال : أو تعرفه ؟ قال : لا . قال : هذا أبي . أفتدرى لمَ كان يشرب من ضرع العنز ؟ قال : لا . فقال جرير : مخافة أن يُسْمَعَ صوت الحلب . فيطلب منه لبن . ثم قال : أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعراً . وقارعهم به . فغلبهم جميعاً .

٦ – تأثره وتأثيره

خضعت حياة جرير لمؤثرات تأثّر بها شعره : فبدأ أكثر قصائده بالنسيب فى صياغة عربية بدوية جاهلية . ومدح بالشجاعة والكرم . وفخر بالأيام والأحساب والأنساب . مقتفياً أثر الجاهليين . وبيته :

أَغَرَّكِ مِنِى أَنَّمَا قَادَنِى الْهَوَى إِلَيْكِ وَمَا عَهْدٌ لَكُنَّ بِدَائِمِ

من قول امرئ القيس :

أَغَرَّكِ مِنِّى أَنَّ حُبَّكِ قَاتِلِى وَأَنَّكِ مهْمَا تَأْمُرِى الْقَلْبَ يَفْعَلِ

وللحياة الإسلامية أثر فى تدينه وعفته . وصفاء نفسه . ورقة طبعه . وسهولة أسلوبه . وعذوبة غزله . وروعة مراثيه .

واستعان بالقرآن والحديث . والعناصر الدينية . والآراء المذهبية . والاتجاهات السياسية والاجتماعية . فشاعت له ألفاظ ومعان لم تكن شائعة . كالله والنبوة والملائكة . والصلاة والصوم والحج . والأبرار والكفار . والإسلام والنصرانية . والخلافة والإمامة وغيرها كقوله :

إِنَّ الَّذِى حَرَمَ الْمكارِمَ تَغْلِباً جَعَلَ الْخِلَافَةَ وَالنُّبُوَةَ فِينَا

ومن اقتباسه القرآنىّ بيته فى عبد العزيز بن الوليد :

فَلاَ هُوَ فِى الدُّنْيَا مُضِيعٌ نَصِيبَه وَلَا عَرَضُ الدُّنْيَا عنِ الدِّينِ شَاغلُه

من قوله تعالى :

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّار الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا)

وهجا الأخطل بنصرانيته :

فَخَرْتُ بِقَيْسٍ وافْتَخَرْتَ بِتَغْلِبٍ فَسَوْفَ تَرَى أَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَرْبَحُ ؟
فَأَمَّا النَّصَارَى العَابِدُونَ صَلِيبَهُم فَخَابُوا ، وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَأَفْلَحُوا

ورمى الفرزدق بفسقه :

تَتَبَّعُ فى الْمَاخُورِ كلَّ مُرِيبَةٍ وَلَسْتَ بِأَهْلِ الْمُحْصَنَاتِ الْكَرَائِمِ

ومدح الأمويين وولاتهم وأيد سياستهم تأييداً دينيًّا ، متأثراً بالنظريات العقلية والمذهبية التى شاعت فى عصره ، والتى كانت سبباً فى نضوج فن النقائض والمناظرة والجدل ، وتوليد المعانى ، كما بينا آنفاً .

وهل شاعرية أسرته ، وبدوية بيئته ، وضعة رهطه ، ورقة حاله ، وتتابع الأحداث ، وتنافس الشعراء بالمربد ، وتقابلهم فى مجالس الخلفاء ، وإجزال العطاء ، وشيوع النقد والثقافة ، إلا مؤثرات أقامت شعره ، وهيأت له نفسه ، فأحكم المدح والهجاء ، وأسلس الغزل والرثاء .

وكثيراً ما تأثر بنقائض الفرزدق والأخطل ، وهو يجيبهما ، محاولاً أن يبذهما ويُفْحِمهما بنقض ما أتيا به .

ولا نعفيه من التأثر بالنقائض والأحاجى ، التى عجت بها المعركة الشعرية ، إبان ظهور الدعوة الإسلامية ، بين شعراء الرسول وشعراء الوثنية .

وله تأثير مباشر فى شاعرية أبنائه وأحفاده ، وسائر شعراء عصره ، لسيرورة

شعره ، ولأنه المقدم فيهم مع زميليه الفرزدق والأخطل اللذين ظهر أثره واضحاً فى نقائضهما وهما يردان عليه .

واقتفى أثره فى مدائحه كثير ممن أتى بعده من الشعراء ، كبشار ، وأبى نواس ، والبحترى ، وأبى تمام . وكان بشار يعجب بشعره ، ويحاول الالتحام به ، ولكنه لم يفلح ، فقد هجاه ولم يجبه ، قال بشار : لم أهجه لأغلبه ، ولكن ليجيبنى ، فأكون من طبقته ، ولو هجانى لكنت أشعر الناس [١] .

واغترف البحترى من عذوبة أسلوبه ، وسار على منهاج نسيبه ، كما سلك طريقته فى الهجاء سواء على بن العباس بن الرومى ، فإنه كان يطيل ويفحش [٢]

وله مرافدة مع بعض الشعراء يعينهم بأبيات يهبها لهم ، قال لذى الرمة : أنشدنى ما قلت لهشام المرى ، فأنشده قصيدته :

نَبَتْ عيناكَ عن طَلَلٍ بِحَزوى ... مَحتْه الريحُ وامتنح القطارا

قال : ألا أعينك ، قال : بلى بأبى وأمى . قال : قل له :

يعُدُّ النَّاسِبُون إلَى تَمِيمٍ ... بُيُوتَ الْمَجْدِ أَرْبَعةً كِبَارَا
يعدُّون الرَّبَابَ وآلَ سَعْدٍ ... وعمْرًا ثم حَنْظَلَةَ الخِيَارَا
ويَهْلك بَيْنَهَا المُرِّىُّ لَغْوًا ... كما أَلْغَيْتَ فى الدِّيَةِ الحُوارا

فلقيه الفرزدق فاستنشده ، فلما بلغ هذه قال : جيّد أعِدْه ، فأعاد ، فقال : كلا والله لقد علّمكهن من هو أشد لحييْن منك ، هذا شعر ابن المراغة [٣] .

واسترفد هشام المرى جريزاً على ذى الرمة ، فقال فى أبيات :

يُمَاشِى عَدِيًّا لُؤْمُهَا مَا تُجِنُّهُ ... مِنَ النَّاسِ مَا مَاشَتْ عدِيًّا ظِلَالُهَا
فَقُلْ لِعَدِىّ تَسْتَعِنْ بِنِسَائِهَا ... عَلَىَّ فَقَدْ أَعْيَا عَدِيًّا رِجَالُهَا
أَذَا الرُّمَّ قَدْ قَلَّدْتَ قَوْمَكَ رُمَّةً ... بطيئاً بِأَيْدِى الْعَاقِدِينَ انْحِلَالُهَا

(١ و ٢ و ٣) « العمدة » لابن رشيق .

فقال ذو الرمة لما سمعها : يا ويلنا ، هذا والله شعر حنظلى . وغلب هشام على ذى الرمة . بعد أن كان ذو الرمة مستعلياً عليه[١] .

والتقط يزيد بن الطثرية وسط بيته :

إِذَا مَا رَآنِى مُقْبِلًا غَضَّ طَرْفَهُ كَأَنَّ شُعَاعَ الشَّمْسِ دُونِى يُقَابِلُهُ

من قول جرير :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كَعْباً بَلَغْتَ وَلَا كِلَابَا

فى قصيدته التى ذاع خبرها . وشاع أثرها . شأن الكثير من شعر جرير ، وهى التى أخزى بها بنى نمير . وكانوا جمرة من جمرات العرب . إذا سئل أحدهم : ممن الرجل ؟ فخمّ لفظه . ومدّ صوته . وقال : من بنى نمير . إلى أن هجاهم جرير بهذه القصيدة فلم يرفعوا رأساً بعدها إلا نكس . حتى إن مولى لباهلة كان يرد سوق البصرة ممتاراً[٢] فيعبث به بنو نمير ، فقص الخبر على مواليه . وقد ضجر من ذلك . فقالوا له : إذا نبزوك فقل لهم :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كَعْباً بَلَغْتَ وَلَا كِلَابَا

ومرّ بهم بعد ذلك فنبزوه . وأراد البيت فنسيه ، فقال : غمض والا جاءك ما تكره . فكفوا عنه . ولم يعرضوا له بعدها .

ومرّت امرأة ببعض مجالسهم فأداموا النظر إليها ، فقالت : قبحكم الله يابنى نمير . ما قبلتم قول الله عزّ وجلّ : ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ ولا قول الشاعر : فغضّ الطرفَ . . . البيت[٣] .

والقصيدة التى منها هذا البيت تسميها العرب الفاضحة ، ويسميها جرير

---

(١) « العمدة » لابن رشيق .
(٢) امتار : جمع الطعام والمؤنة .
(٣) « العمدة » لابن رشيق .

الدمّاغة ، أو الدهقانة ؛ ويسمى قافيتها المنصورة . لنصره بكل قصيدة على قافيتها .

وهذا رجل ظريف من تغلب يقول : ما لقى أحد ما لقيت أنا ! قالوا : وكيف ذاك ؟ قال : قال جرير أبياته التى منها :

والتَّغْلبِيُّ إِذَا تَنَحْنَحَ لِلْقِرَى حَكَّ اسْتَهُ وَتَمَثَّلَ الْأَمْثَالَا

والله ، إنى لأتوهم أن لو نهشت استى الأفاعى ما حككتها [1] .

ومرّ بالفرزدق رجلٌ فيه لين ، فقال له : من أين أقبلتْ عمّتنا ؟ قال : نفاها الأغرُّ ابنُ عبد العزيز . فكأنّ الفرزدق صُبّ عليه الماء ، لأنه عرّض له بقول جرير فيه حين نفاه عمر بن عبد العزيز من المدينة :

نَفَاكَ الْأَغَرُّ ابْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَحَقّك تُنْفَى مِنَ الْمَسْجِدِ

وله أبيات كثيرة لها صلة بمن تقدم عليه ، وأثرٌ فيمن تأخر عنه أو عاصره مثل قوله :

يُكَلِّفُنِى ردَّ الْعَوَاقِبِ بَعْدَ مَا سَبَقْنَ كَسَبْقِ السَّيْفِ مَا قَالَ عَاذِلُهُ

أخذه الكميت بن معروف فقال :

ولا تُكْثِرُوا فِيه الضِّجَاجَ فإنَّه مَحَا السَّيفُ ماقَالَ ابنُ دَارَةَ أَجْمَعَا

والمثل السائر من قبل هذا : « سبقَ السيفُ العذل [2] » .

وقال جرير :

قَوْمٌ إِذا حَضَرَ الْمُلُوكَ وُفُودُهُمْ نُتِفَتْ شَوَارِبُهُمْ عَلَى الْأَبْوَاب

(١ و٢) « البيان والتبيين » .

فقال الآخر :

فَلَمَّا وَرَدْتُ الْبَابَ أَيْقَنْتُ أَنَّنَا عَلَى اللهِ والسُّلْطَان غَيْرُ كِرَامِ[١]

* * *

وقال سويد بن أبي كاهل اليشكري :

وَلِسَاناً صَيْرَفِيًّا صَارِماً كَحُسَامِ السَّيْفِ مَا مَسَّ قَطَعْ

وقال حسان بن ثابت :

لسانِي وسيفي صارمان كلاهما ويَبْلُغُ مالايَبْلُغ السَّيْفُ مِذْوَدى[٢]

فقال جرير :

وَلَيْسَ لِسَيْفِي فِي الْعِظَامِ بَقِيَّةٌ ولا السَّيْفُ أَشْوَى وَقْعَةً مِنْ لِسَانِيَا

وقال الآخر :

وَجُرْحُ السَّيْفِ تَدْمُله فَيَبْرَى وَيَبْقَى الدَّهْرَ ما جَرَحَ اللِّسَان[٣]

ومنه قول الآخر :

جِرَاحاتُ السِّنان لها الْتِئامٌ ولا يلتامُ ما جَرَحَ اللِّسانُ

* * *

وديوان جرير وثيقة تاريخية لأيام العرب وأحسابها وأنسابها ، وصورة صادقة لحياة الأمويين الاجتماعية والسياسية والأدبية ، غير أنه لم يسلم من وصمة الهجاء المفحش الخبيث ، وسبة الواقعية المكشوفة .

وطالما استشهد النحاة بأوابده ، واغترف الأدباء من بحور قصائده ، وسيبقى أبد الدهر منهلاً عذباً لورّاد العربية ، وعشاق البيان .

* * *

(١ ، ٢) « البيان والتبيين » .

(٣) المذود : اللسان .